(٨٨)

"وابل النعم"

استهلت يومها كعادتها بشرب فنجان قهوة سوداء على الريق، لأنها وكعادتها أيضًا استيقظت من نومها لتشعروكأنها بُعِثت للحياة بعد موتٍ طويل لتُسحَب على وجهها إلى جهنم وبئس المصير. ومع بداية كل يومٍ جديد تشرق فيه الشمس لتملأ الدنيا أملاً وسرورًا وبهجة، تكون هى الكائن الوحيد المحروم من ذلك الضياء، وذلك الأمل، وتلك البهجة، وهذا السرور. وكما قبعت الكآبة على روحها فأثقلت جسدها عن الحركة، لوَّن التشاؤم كل نقطة بيضاء فى قلبها باللون الأسود الذى بات هو لون حياتها الذى تفتح عينيها عليه مع منتصف كل صباح.

ومثلما يحاول الأسوياء دائمًا أن يحتفظوا بأحزانهم فى صدورهم، لا أن يثقلوا بها كاهل كل من حولهم، يتفنن كذلك هؤلاء الحفنة من الأشقياء بكل ما أوتوا من عزمٍ وإصرار على إتعاس كل من حولهم غير مدخرين لأدنى جهد عندهم فى بث روح التشاؤم والكآبة والحزن والضيق والضجر فى كل وقتٍ، وبلا أى سبب. وعادةً إذا ما حاولْتَ أن تسأل أحد هؤلاء التعساء عن سر بؤسهم وشقائهم الملحوظ، تجد شكواهم منصبة على نعمةٍ دنيوية بعينها قد حُرموا منها بينما يتمتع بها كل من يرونه حولهم. لقد ضاقت بهم صدورهم رغم اتساع الدنيا من حولهم بسبب نعمةٍ واحدة فقدوها، فقرروا أن يعيشوا بقية أعمارهم فى غمٍ وشقاء، طالبين إياها بإلحاحٍ شديد وإصرارٍ عنيد، وموقنين أن

سعادتهم متوقفة حصريًا على تلك النعمة التى فقدوها بعد نيل، أو حُرموا منها للأبد. لقد أصم هؤلاء آذانهم عن سماع الكلم الطيب، مثلما منعوا ألسنتهم من قبل عن التفوه بكلمة شكر واحدة تُثلِج صدورهم، فتجبرها على الاتساع إذا ما خطر ببالها أن تضيق. ومثلما كان ضيق نظرتهم تلك نابعًا من ضيق صدورهم التى أوصدوا أبوابها بعنف على قلوبهم ملقين مفاتيحها فى غياهب عقولهم المظلمة، أغمضت هى أيضًا عينيها عامدةً متعمدة عن كل النعم التى تغمرها، ولا تستطيع أن تعدها أو أن تحصيها، وتركت نفسها فريسة سهلة للحزن والشقاء.

لقد انزلقت معهم فى متاهة الكِبر والعناد، وتناست حتى نسيت أنها دائمًا وأبدًا فى مقام الممنوح لا مقام المانح، وفى منزلة الآخذ لا منزلة المعطي، لذا عليها أن تتأدب فى الطلب، وأن تصبر على المنع، وأن تشكر مُسبب الأسباب فى كل وقت وعلى كل حال. فهذا شأن كل من لا حول ولا قوة له مع من له كل الحول وكل القوة. وذلك هو خُلق كل من يريد الاستزادة من النعم التى لا يُنعِم بها سوى واهب النعم جميعًا، والذى إرادته لأى شيء ليست سوى كلمة هو قائلها أمرًا لكل شيء، وطاعة من كل شيء، استسلامًا وعبودية من كل المخلوقات، وخضوعًا لألوهية الإله الواحد الحنَّان المنَّان ذى الجلال والإكرام.

وذات ليلة قررت أخيرًا أن تستيقظ مبكرًا فى الصباح. فإذا بها فور استيقاظها من نومها وفواقها من غفلتها تشاهد الشمس المشرقة وكأنها تراها للمرة الأولى فى حياتها، فراقبتها وهى ترسل أشعتها الوضاءة حاملة كل النعم والخيرات لمن سيبدأ رحلة الصعود رجاءً فى اللقاء، واستبشارًا بالرضا والاسترضاء.